وأسمح طبعاً ، لقد كان يحمل بين جنبيه قلباً يود لو يسع فيه كل محروم ومظلوم ، ويود لو يستطيع أن يوزعه على الجميع ، ثم لا يبقى له منه شيئاً ...

أذكر أني كنت معه في مرة أنا والمرحوم صديقنا الأستاذ ابراهيم الجزار الممثل ، وكان ابراهيم يجيد إلقاء الشعر كأروع ما يكون ، فطلب منه حافظ أن يلقي عليه بعض ما يحفظ ، فأخذ ابراهيم يلقي عليه قصيدته التي قالها في مبايعة شوقي بالإمارة ، وأخذ حافظ يهتز طرباً لنغمات الإلقاء ومقاطعه ، وبعد الإنشاد أخذنا نسأله عن رأيه الحقيقي في شعر شوقي ، فما تكلم عن شوقي الشاعر ، ولكنه أخذ يتكلم عن شوقي الرجل فقال : « إن شوقي رجل نذل » ، وقص علينا كيف جاء المرحوم الشيخ عبد المحسن الكاظمي إلى مصر غريباً طريداً ، فطمع أن يكون له في رحاب الخديوي متسعاً ، ولكن شوقي خشي منافسة الشاعر العراقي ، فسد عليه الباب وقطع عليه كل رجاء ، وكفر في هذا بأخوة الأدب ، وأخوة العرب ، وبالواجب نحو رجل شطت به الدار ، ووجد السيد عبد المحسن في الأستاذ الإمام حمى ، ولكن الحمام لم يمهل الأستاذ الإمام ... وهنا تهدج صوت حافظ ، ودمعت عيناه ، ولم يستطع أن يتم الحديث ...

لهذا كانت نزوات حافظ تثور على شوقي ، ولهذا كان ينال بقارص الكلم أحياناً في شعره وكثيراً في مجلسه ، ولكنه رحمه الله كان يحب خليل مطران كل الحب ، ويثني عليه كل الثناء ، ذلك لأنهما كانا متوافقان إنسانية وأريحية ، كما كان يثني على أحمد محرم وأحمد الكاشف وأحمد نسيم ويذكرهم بالخير ، فهل كان يبلغ به التهافت بعد ذلك أن يجحد شاعرية شوقي بجانب هؤلاء ...

كلا ! إن حافظاً لم يجحد شوقي من ناحية شاعريته ، ولكنه — كما قلنا — كان يجحده من ناحية إنسانيته ...

نفى شوقي عن مصر ، فشمت فيه أولئك الذين كان يقف في طريقهم . أما حافظ ، فقد جزع عليه غاية الجزع ، واشتد الحنين بشوقي إلى النيل ... فأرسل بهذه الزفرة الحارة :

يا ساكني مصر إنـــا لا نزال على
عهد الوفاء — وإن غبنا — مقيمينا
هلا بعثتم لنا من ماء نهركم شيئاً نبل به أحشاء صادينا

أنوار الجحيم ...

من عذيري من الهوى والتصابي بعد ما أبلت الغواني شبابي ؟
إنني اليوم بين أهلي غريب لم أجد لي مواسياً في مصابي
كلما أترع الأسى لي كأساً قلت حسبي ما ذقته من عذاب
خطرات في شرة وعرام نتنزى ... قد حطمت أعصابي
هي كالنار في الهشيم ... وكالداء صار يجتاح ناضرات الروابي !
غادة تأسر النفوس بدل مستبد على النهى غلاب
عشت في ظلها الظليل وأفضت بي إليها يوماً مطايا الرغاب
ونرشفت من لماها رحيقاً قدسياً ما صب في أكواب
أين منه ما أحرزته بنات الـ ـحل أو ما عصرت من أعناب؟
ورأيت الجمال فيها يغني وغناء الجمال أصداء غاب
توقظ الغفيات من ذكرياتي وتنشي وجوهها بالضباب
في الضحى والمساء أزجي إليها صلوات العبيد للأرباب
كطيور قد حلقت ... تتناجى بأغاريدها الرقاق العذاب !
كل سرب يمر يتلوه سرب والهوى طائر مع الأسراب
يا غناء قد ضاع في مجهل الليـ ـل ضياع الوفاء في أصحابي
أنت عندي أشلاء حب عزيز دنست طهره معاني التراب
وحطام من ذكريات غوال أنا منها في موعد كذاب !
دفنتها الهموم في ظلمة الفكـ ـر فلاحت مركومة كالسحاب
ما بقائي وقد مضى أحبابي وصحا القلب من خمار الشباب

محمد علي خلوف

كل المناهل بعد النيل آسنة ما أبعد النيل إلا عن أمانينا !

فأجابه حافظ بتلك الزفرة الصادقة :

عجبت للنيل يدري أن بلبله صادٍ ويسقي ربى مصر ويسقينا
والله ما طاب للأصحاب مورده ولا ارتضوا بعدكم من عيشهم لينا
لم تنأ عنه وإن فارقت شاطئه وقد نأينا ، وإن كنا مقيمينا !

ألا رحم الله الشاعرين الكبيرين ، فقد نأيا عنا بجسمهما ولكنهما بيننا ملء السمع والبصر بروحهما وبفنهما ، وكم بيننا من الحاضرين بأجسامهم ، ولكنهم في الغائبين النائين ...

« الجامد »